دراسة المستقبل برؤية
مؤمنة مسلمة

مفهوم دراسة المستقبل

ما هو مفهومنا للدراسات المستقبلية؟ وماذا نعني بدراسة المستقبل؟

أذكر أن هذين السؤالين برزا أمامي حين عكفت على تأليف كتابي «ماذا بعد حرب رمضان فلسطين والوطن العربي في عالم الغد» أواخر عام ١٣٩٣هـ. الموافق ١٩٧٣م، بعد ثلاث سنوات من العناية بموضوع الدراسات المستقبلية. وقد حاولت الإجابة فقلت: «الدراسات المستقبلية هي ابتداء للدراسات التاريخية، فكلتاهما رحلة عبر الزمان الذي ميّز الله سبحانه وتعالى الإنسان من غيره من مخلوقاته بإدراكه. وهي تتناول بالحديث المستقبل من خلال النظر في الحاضر والماضي. ودراسة المستقبل من ثم ليست تنبؤاً يقوم على الرجم بالغيب، وإنما هي محاولة علمية تتكامل فيها الدراسات لمعرفة جوانب صورة الحاضر وتحليلها والتعرف على مجرى الحركة التاريخية من خلال دراسة الماضي وملاحظة سنن الكون، والانطلاق من ذلك كله إلى استشراف المستقبل وتشوفه وصولاً إلى طرح رؤية له. وتتضمن هذه الرؤية توقعات يحتمل حدوثها كاستمرار للحركة التي تحكم الواقع القائم، وبدائل وخيارات وأحلاماً يجري التطلع لتحقيقها، بممارسة الفعل. فلا يغيب عن البال في هذا الطرح دور إرادة الفعل عند الإنسان والمجتمع الإنساني في الاختيار وصنع المستقبل وترجيح بديل على آخر. كما لا يغيب عن البال أيضاً دور الحلم عند الإنسان والمثل الأعلى عند المجتمع الإنساني في صنع إرادة الفعل هذه، ومن ثم توفير القدرة على الفعل. فهذا الإنسان قادر على أن يكون فاعلاً في الأحداث ومؤثراً على تيارها المتدفق».

لاحظت يومذاك أيضاً أن دراسة المستقبل هي تعبير عن حاجة أصيلة في الاجتماع الإنساني وقلت: «إن الحاجة إلى استشراف آفاق المستقبل واستشفاف كنه ما سيأتي، هي حاجة إنسانية تلح في فترات معينة أمام بروز سؤال ماذا بعد؟ وتدعو إلى محاولة الإجابة عنه». وبدا لي أن لدراسة المستقبل هدفاً هو «توظيف المعرفة للفعل والتأثير، وتحديد ما ينبغي أن يكون بعد توقع ما سيكون بحيث يمكن بالفكر والإرادة والقدرة أن تحكم الأحلام التوقعات».

أجد نفسي اليوم من خلال اشتغالي بالدراسات المستقبلية لسنين طويلة أشد اقتناعاً بهدف دراسة المستقبل. هذا وقد استوقفني مؤخراً وأنا أعاود قراءة كليلة ودمنة الذي نقله للعربية ابن المقفع ما جاء على لسان دِمنة وهو يخاطب كليلة، وكلاهما من أبناء آوى من ذوي دهاء وعلم وأدب، قائلاً «فإن أموراً ثلاثة العاقل جدير بالنظر فيها والاحتيال لها بجهده. منها النظر فيما مضى من الضر والنفع، أن يحترس من الضر الذي أصابه فيما سلف لئلا يعود إلى ذلك الضر، ويلتمس النفع الذي مضى ويحتال لمعاودته. ومنها النظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضار، والاستيثاق مما ينفع والهرب مما يضر. ومنها النظر في مستقبل ما يرجو من قِبَل النفع، وما يخاف من قبل الضرّ ليستتم ما يرجو ويتوقى ما يخاف بجهده». فنحن هنا أمام رجاء النفع وتوقي الضرِّ ببذل الجهد، ونحن هنا أمام نظر في المستقبل من خلال النظر في الماضي والحاضر المقيم.

استوقفني أيضاً قول دمنة للأسد «وأعجز الملوك آخَذُهم بالهوينا، وأقلهم نظراً في مستقبل الأمور». وتداعى إلى خاطري ما أكده ألفين توفلر من أن دراسة المستقبل تجعلنا أقدر على فهم مشاكلنا الراهنة وتلمس حلول ناجعة لها حين قال في كتابه الأول«صدمة المستقبل» «في الماضي درس الرجال التاريخ الماضي ليسلطوا الأضواء على الحاضر. ولقد قمت بتدوير مرآة الزمان متوقعاً أن صورة المستقبل تستطيع امدادنا بنظرات قيمة عن حاضرنا. وسنجد في أيامنا القادمة أن الصعوبة في فهم مشاكلنا الخاصة والعامة تزداد أمامنا إذا لم نستفد في معالجتها من رؤية

المستقبل». وقد دعاني التأمل في هذا الحديث إلى أن أكتب في كتابي ماذا بعد حرب رمضان قائلاً: «إذا كان الفيلسوف الألماني فون بابن قال بحق «أن الذي يعرف من أين يعرف إلى أين»، فإن الذي يتشوف غده يدرك ادراكاً جيداً أين يقف اليوم». وهذا الادراك يجعل الإنسان أشد ثقة بقدرته على معالجة مشاكله. «فكلما زادت القـدرة على حساب المستقبل ورؤيته على أسس صحيحة في رصد الوقائع وفي استدلال النتائج»، كما قال زكي نجيب محمود في كتابه «مجتمع جديد أو الكارثة»، «نقصت الأوهام والمخاوف». وقد أوضح هذا المفكر أن الإسلام الذي يدعو الناس ألا يركنوا في حياتهم إلى تشاؤم أو تفاؤل يدعوهم إلى حساب المستقبل حساباً علمياً ليعـرفـوه قبل وقوعه، فنحن هنا أمام دعوة لإعمال الفكر فيما ينبغي عمله لصلاح أمـورنـا. ويؤكـد زميلنا المهدي المنجرة على هذه الدعوة وهو يتحدث عن أهمية الدراسات الاستقبالية، ويستحضر قول الله تعالى: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ ليقول «إن الإسلام كدين ودنيا هو قبل كل شـيء نظرة نحـو الافق بالنسبة لمسائل هذه الدنيا وما بعدها. ذلك أن على هذه النظرة تتوقف الأعمال التي نحن مسؤولون عنها أمام أنفسنا وأمام المجتمع وأمام الله»، ثم ليشدد على تجنب الرؤية القدرية التي لا يتحكم فيها الإنسان ولا المجتمع في مصيره.

أجـد نفسي اليوم أيضـاً راسـخ الاقتنـاع بأن الدراسات المستقبلية هي امتداد للدراسات التاريخية وهي من ثَمَّ تتطلب ما يتطلبه علم التاريخ من «نظر وتحقيق، وتعليل للكـائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق». وهذا هو تعريف شيخنا ابن خلدون لعلم التاريخ في باطنه. ثم هي تتطلب فضلاً عن ذلك تشوُّفاً. وقد تحدّث ابن خلدون في مقدمته عن «تشوف الأمور المستقبلية» بعد أن وصف الإنسان بأنه «صاحب الفكر والروية». والحق أن الدراسة المستقبلية لا يمكن أن تتم إلا بالدراسة التاريخية فركن التاريخ هو أحد أركان ثلاثة فيها يتكامل مع ركن الحـاضـر المقيم وركن التشوُّف المستقبلي. وقد ألحت عليّ وأنا أكتب ماذا بعد؟

فكـرة أننـا حين ندرس التـاريخ نأخذ في اعتبارنا قدرة الإنسـان على التذكر، وحين ندرس المستقبـل نأخـذ في الاعتبار قدرته على الحلم، وبهاتين الخاصتين التذكر والحلم ميّز الله الإنسـان عن غيره من مخلوقاته وكرّم بني آدم. وكم أسعدني مؤخراً أن أطـالع في نهاية الأرب للنويري وفي الكشكول للعاملي حديثاً عن العوالم الثلاث لدى الإنسـان، عالم التـذكـر وعـالم الفكـر وعـالم التخيل. وهذه العوالم الثلاث ضرورية لدراسـة المستقبـل، وكـل منهـا شرط لازم. وواضـح أن «تشـوف الأمور المستقبلة» الذي تتجاوز به دراسة المستقبل الدراسة التاريخية يتطلب ولوج عالم التخيل الثـالث والتعـامـل مع عنصـر الحلم وما يتضمنه من أحلام وآمال وتطلعات ورجاء. وقد توقفت طويلاً أمام هذا العنصر مرة أخرى إبان الأزمة التي عشناها في وطننا وعالمنا منذ الصيف الماضي وتأملت في سورة الشرح واليسرين والعسر وانشراح الصدر والنصب والرغب إلى الله، وفي عدد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حول الأمل. وألح علي قول الطغرائي في لامية العجم «ما أضيق العيش لولا فسحةُ الأمل»، وتعريف أريك فروم للإنسـان بأنه هو الذي يُؤمِّل ويأمل في كتابه «ثورة الأمل نحو أنسنة التقنية» الذي درس فيه المجتمع التقني وامكانات جعله إنسانياً.

تاريخ الدراسات المستقبلية الحديثة:

يبرز عند هذا الحد من الحديث سؤال عن تاريخ هذه الدراسات المستقبلية بمفهومها الذي حددناه لها. متى بدأت؟ وكيف؟ ولماذا؟

يطيب لأكثر المشتغلين بالدراسة المستقبلية وفق هذا المفهوم أن يتحدثوا عن حداثة هذه الدراسات، فهي عند بعضهم لم تظهر إلا في أعقاب الحرب العالمية الثانية أي أنها ابنة عالمنا المعاصر. وقد يعود بها بعض آخر إلى بداية القرن العشرين الميلادي فهي ابنته، ويرى هؤلاء في كتابات الروائي الفرنسي جول فيرن التخيلية أواخر القرن الماضي إشارات للحمل بهذه الدراسات. ومن أصحاب الرأي الأول زميلنـا المهـدي المنجرة الذي يقول «إن الدراسات الاستقبالية تعد ظاهرة حديثة النشأة تعود إلى نهاية الحرب العالمية الثانية. وأول من باشرها مؤسسة راند بناء على

طلب البنتاجون في عام ١٩٤٦. ولم تشهد انطلاقتها الحقيقية إلا مع نهاية الستينات». وقد تتبع زكي نجيب محمود في مقاله «المستقبل المحسوب» بدايات الاهتمام بهذه الدراسات منذ مطلع القرن العشرين. وتحدث قسطنطين زريق في كتابه «نحن والمستقبل» عن هذا النمط العلمي الريادي المعاصر في الاهتمام المستقبلي الذي يتميز بصفته العلمية وبتمسكه بالمنطق الاختباري وبأنه جهد جماعي فرآه ينتسب إلى عالمنا المعاصر.

واضح أن ظهور الدراسة المستقبلية بمعناها الحديث وثيق الصلة بثورة العلم التقني التي تفجرت في عالمنا المعاصر هذا، وأثمرت ثورة في الاتصال وثورة في المعلومات، وأحدثت تحولات وتحولات. وقد أورد هوج ستيورات في كتابه «تذكر المستقبل» تسعة تحولات تحدث عنها جون نيسبت عام ١٩٨٢ وسماها توجهات عظمى «تحول من مجتمع صناعي إلى مجتمع معلوماتي، انتقال من انقياد للتقنية إلى استجابة إنسانية لها، انتقال من ضيق الاقتصاد القومي إلى شمول الاقتصاد العالمي، تحول من المركزية إلى اللامركزية، تزايد الاعتماد على الذات في مقابل الاعتماد على المؤسسات، التحول من ديموقراطية الإنابة إلى ديموقراطية المشاركة، تحول من نظامٍ هرمي إلى نظامٍ شبكي، انتقال من مناطق صناعية إلى مجتمعات جديدة، تحول من مجتمع خيارات محدودة إلى خيارات عديدة». ولما كانت ثورة العلم التقني قد تفجرت في الغرب فإن ظهور الدراسة المستقبلية بمعناها الحديث بدأ هناك، وقد أولتها عنايةً خاصة المؤسساتُ العسكريةُ والشركاتُ متعددة الجنسيات عابرة القارات. وهكذا بدت الصلة وثيقة بين الدراسات المستقبلية والدراسات الاستراتيجية.

كان طبيعياً أن يجري بحث عن اسم يطلق على هذه الدراسة المستقبلية التي ظهرت بمعناها الحديث، وأن يجتهد المشتغلون فيها فيطلقون عليها هذا الاسم أو ذاك. وهكذا ظهر اسم «المستقبلية» ولم يلبث جاستون بيرجر الفرنسي أن سمّاها عام ١٩٦٠ «علم الريادة». ثم استخدم اوسيب فليشتم الألماني عام ١٩٦٦ اسم «علم

المستقبل» في كتابه «علم التاريخ وعلم المستقبل». وهناك من سمّاها «علم حساب المستقبل».

هل «دراسة المستقبل» «علمٌ»؟

يلفت النظر في هذه التسميات حرصها على استخدام مصطلح «علمي» بمفهومه الغربي الحديث. الأمر الذي ينمّ عن رغبة مطلقيها في تأكيد «علمية» هذه الدراسة المستقبلية وتمييزها عن أنماط أخرى من الاهتمام المستقبلي عرفتها الإنسانية في تاريخها المتصل عبّرت عن نفسها في صور من التنبؤ. وقد أثار هذا الحرص على استخدام مصطلح علم التساؤل هل هذه الدراسة المستقبلية هي حقاً علم وفق المفهوم الحديث لهذا المصطلح الذي يركز على التجربة والاختبار؟ هل هي علم كعلم التاريخ وفق المفهوم الذي طرحه ابن خلدون؟

يجمع المُشتغلون بالدراسة المستقبلية على أنها اجتهاد علمي منظم يرمي إلى صوغ مجموعة من «التنبؤات المشروطة» تشمل المعالم الرئيسية لأوضاع مجتمع ما أو مجتمعات عبر فترة عقدين أو أكثر، وتنطلق من بعض الافتراضات الخاصة حول الحاضر والماضي لاستكشاف أثر دخول عناصر مستقبلية على المجتمع أو المجتمعات. وقد سمّاها البعض نمطاً علمياً في التنبؤ يعتمد «الحساب». وأكد الجميع على أنها تخضع لشروط تنأى بها عن أن تكون عملاً خيالياً طوباوياً. ولكن المتأمل في هذا التحديد للدراسة المستقبلية يلاحظ وجود حذرٍ من اعتبارها علماً تجريبياً اختبارياً مع حرصها على اعتماد المنطق الاختباري، لأنها تتطلب في نهاية المطاف «رؤية» تتبلور يكون للفطنة والحدس دور في بلورتها وتقوم على اعتماد «النظرة الشاملة». وقد آثر الفين توفلر أن يصفها مؤخراً بعد سنوات طويلة من الاشتغال فيها بأنها «فن وليست شكلاً هندسياً»، وقال بعد أن شرح طريقته فيها وهو يجيب عن أسئلة كثيرة في كتابه «خرائط المستقبل» «وليأت العلم لمساعدة الفن».

لم يتحدث ابن خلدون عن علم المستقبل وإنما أشار إلى تشوُّف الأمور

المستقبلية. وقد بحث في مقدمته في علوم تعاملت مع المستقبل بأنماط مختلفة ضمن البـاب السادس الذي جعله في ستين فصلاً «في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه»، فنظر في علم التصوف ومراتب التجليات وعلم تعبير الرؤيا وعلم السحر والطِلسمات وعلم أسرار الحروف «السيميا» الزايرجة وفي إبطال صناعة النجـوم وضعف مداركها وفساد غايتها. كما ضمن الباب الأول الخاص بالعمران البشري مقدمة سادسة في أصناف المدركين للغيب من البشر، فتحدث في تفسير حقيقة النبوة والوحي والكهانة والرؤيا والإخبار بالمغيبات. وانتهى من ذلك كله إلى القول «وأما الكائنات المستقبلة إذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها خبر صادق فهو غيب لا يمكن معرفته.. ولا سبيل إلى معرفة ذلك من هذه الأعمال بل البشر محجوبون عنه «والله يعلم وأنتم لا تعلمون». وواضح أن ابن خلدون حين اطلق مصطلح علم على السحر والزايرجة وأمثالهما كان ينطلق من تعريف العلم بأنه «كل ما عُلم فهو علم» كما أورد ابن حزم في رسالته «مراتب العلوم». ولكنه اعتمد في الوقت نفسه تعريف «حد العلم» عند علمائنا بأنه «الاستيقان والتبين»، كما أورده النمري القرطبي في كتابه «بيان جامع أحكام العلم»، ليميز بين ما هو واقع يمكن معرفته وما هو غيب لا يمكن معرفته.

أذكـر أنني حين بدأت الاشتغال بالدراسة المستقبلية، تجنّبت استخدام مصطلح علم المستقبل، واستخدمت الدراسة المستقبلية. ولم ألبث أن استخدمت مصطلحات أربعة في إطارها هي الاستشراف والتشوُّف والرؤية وصولاً إلى الصنع، وشرحت مدلول كل منها. وقد جرى مؤخراً استخدام المصطلح الأول «الاستشراف» للدلالة على الدراسة المستقبلية في بعض الأوساط العربية المشتغلة بها، فرأيناه في كتاب صور المستقبل العربي لإسماعيل صبري عبد الله وآخرين وفي مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي الذي قام به مركز دراسات الوحدة العربية. وأجد نفسي اليوم مطمئناً إلى مصطلح الدراسة المستقبلية وإلى مصطلحات الاستشراف والتشوف والرؤية والصنع، واتجنب في الوقت نفسه مصطلح علم المستقبل آخذاً

بعين الاعتبار حد العلم عند علمائنا الذي هو «الاستيقان والتبين»، وقد حسم زميلنا المهدي المنجرة في اجابته عن التساؤل بقوله «ليست الدراسات الاستقبالية بعلم، وإن استعانت منهجياتها ببعض العلوم الدقيقة والاجتماعية» وذلك في بحثه الذي قدمه عنها لندوة قضايا المستقبل الإسلامي (الجزائر ٤-٧/٥/١٩٩٠). ويمكن القول بعد هذا الحديث إن الدراسة المستقبلية وإن لم تكن علماً بمفهوم العلم التجريبي فإنها تحاول اعتماد مناهج علمية تنأى بها عن مجرد التنبؤ رجماً بالغيب بأنماطه المختلفة، وبقدر ما تتوافر العلمية في هذه المناهج بقدر ما يتحقق مفهوم «الدراسة» الوارد في هذا المصطلح. الأمر الذي يصل بنا إلى الحديث عن المنهج أو المناهج.

مناهج دراسة المستقبل

يتحدث المشتغلون بالدراسة المستقبلية عن عدة مناهج جرى اتباعها في الدراسات المستقبلية التي ظهرت في عالمنا. وقد حرصت دراسة استشراف مستقبل الوطن العربي في القسم الأول منها على تصنيف هذه المناهج. فهناك منهج إصدار نبوءات يقوم على انتقاء بعض المتغيرات التي يعتقد بوجود أهمية خاصة لها، وتتبع مساراتها، كالمتغير السكاني مثلاً أو متغير الموارد بفعل استنزافها. وقد تركزت عملية نقده على أنه يعتبر المستقبل قدراً محتوماً تحدد سلفاً. وهناك منهج اجراء تنبؤات على أساس بناء قاعدة صلبة من المقدمات تبنى عليها نتائج يجري استخلاصها منها. ويُعاب عليه أنه يفرِّق في أرقام قد تكون غير دقيقة وأنه يفتقد النظرة المجتمعية التي تلاحظ ما يقوم في المجتمع من وشائج. وهناك منهج التخطيط للمستقبل الذي يضع نصب عينه هدفاً محدداً مرغوباً فيه يحدد اتجاه الدراسة. ويرى ناقدوه أنه يجعل الدراسة تخطيطية أكثر من كونها مستقبلية. وهناك منهج الاستعانة بالدراسات «المستقبليات» التي تركز على ما تشهده التقنية من تقدم، ولا تلتزم بمنهج محدد فتأتي مفتقدة الشمولية المطلوبة وهناك أخيراً منهج التحليل المستقبلي الاستشرافي، وهو منهج مركب «لا يسعى إلى تنبؤ أو تخطيط، بل يقوم باجراء مجموعة من التنبؤات

المشروطة أو المشاهد التي تفترض الواقع تارة والمأمول فيه تارة أخرى. . دون أن تنتهي إلى قرار بتحقيق أي من هذه الصور فهذا أمر يدخل في حيز التخطيط. والقصد هو اطلاع القوى الفاعلة في المجتمع على متطلبات تحقيق إحدى الصور المأمول فيها». وقد اختار المركز هذا المنهج الاستشرافي لدراسته التي صدرت بعنوان «مستقبل الأمة العربية التحديات. . والخيارات». وجاءت هذه الدراسة معتمدة أربعة محاور وطرحت نتائجها في ثلاثة مشاهد مستقبلية بديلة تغطي فترة ربع قرن هي المدى الزمني للدراسة بين عامي ١٩٩٠ و ٢٠١٥. وتحدثت مقدمتها عن خمس خصائص لهذا المنهج الاستشرافي هي الشمولية، وتجنب التحيز، والجمع بين الأسلوبين الكمي وغير الكمي، والترابط بين الأنساق، واستخدام أسلوب المحاكاة.

يؤكد المشتغلون بالدراسة المستقبلية على ضرورة أن يكون المدى الزمني للدراسة محدوداً في نطاق المستقبل القريب. فإذا تجاوز هذه الحدود يخشى أن يفقد القدرة على الاستدلال كما يقول زكي نجيب محمود. وهكذا «لا يجدينا كثيراً عندما نعمد إلى تكوين صورة المستقبل أن نتوغل في مجاهل المستقبل البعيد. . وإنما المجدي أن نقتصر على المستقبل القريب المحدود ببضعة عقود من السنين» كما يقول قسطنطين زريق في كتابه «مطالب المستقبل العربي». وقد عدّد مؤلفو «صور المستقبل العربي» المدى الزمني لدراستهم المستقبلية بعقدين من السنين. وهذا شأن كثير من الدراسات المستقبلية التي ظهرت في أنحاء مختلفة من عالمنا منذ السبعينات وتراوح مداها الزمني بين عقدين وثلاثة عقود وهناك دراسات مستقبلية اعتمدت العقد الواحد من السنين مدى زمنياً لها ملبية نزوعاً إنسانياً لاستشراف المستقبل في مطلع كل عقد جديد من السنين ندخله حسب التقويم. وأجد نفسي قد لبيت هذا النزوع في كتابي «رؤى مستقبلية عربية» بينما امتد استشرافي في كتاب «ماذا بعد» لثلاثة عقود.

لقد تحدث مؤلفو «صور المستقبل العربي» عن أربعة أساليب تتعلق بالمنهج

الـذي ساروا عليه. أسلوب حدسي مبني على الخبرة، وآخر استكشافي يستطلع علاقـات قامت في المـاضي، وثـالث استهـدافي يسـتوجب معياراً وتدخلاً لتغيير المسـار، ورابـع نماذجي يهتم بمجمل التغيرات والتفاعلات. واستبعد هؤلاء من منهجهم التخطيط طويل المدى والتنبؤات. والحق أن مباشرة الدراسات المستقبلية تتطلب خبرة متراكمة تثمر حدساً يمكِّن القائمين بها من إحسان مقاربتها. كما تتطلب قدرة على استخلاص عصارة الماضي في صعده المختلفة وتحديد مجرى الحركة التاريخية. وهي تتطلب وعياً بأحلام الاجتماع الإنساني. كما تتطلب فكراً يعتمد النظرة الشاملة ويتقن التركيب. والسؤال الذي يبرز عند هذا الحد هو «من أين يكون البدء في الدراسة المستقبلية؟»

يحدد قسطنطين زريق طريقتين لتكوين صورة المستقبل الأولى «هي البدء من الحـاضـر ومحاولة استكشاف اتجاهاته، وإسقاط هذه الاتجاهات على المستقبل لاستخلاص صورته» والأخرى «هي البدء بتحديد الأهداف والتطلعات ثم صياغتها إطاراً ضابطاً للتوجهات المستقبلية فكراً وعملاً». وهو يُفضّل الأولى التي يقول عنها إنهـا «هي الـطريقـة التي يتبعهـا اليوم غالب المهتمين ببحث المستقبـل أو بعلم المستقبل. وهي ترمي إلى استجلاء ما يبدو أنه سيكون على درجات مختلفة من الإمكان أو الترجيح ولا نقول التثبت، لأن المستقبل هو بطبيعته ميدان الاحتمال». أمـا الأخـرى «فهي عرضـة للتيهان الوهمي أو التفكير الرغبي أو النزوع الوعظي ما لم تبق مشـدودة الأواصـر بالحـاضـر متفـاعلة وإياه تفـاعـلاً مستمـراً». وهـذا ما يجعـل الاستطلاعيين العلميين يعزفون عنها عادة. وقد رأى زريق في النمط العلمي الريادي المعـاصر من الاهتمام المستقبلي نزعة استطلاع فيها من ذلك النمط البدائي من الاهتمام المستقبلي، ونزعة إيمان فيها من النمط العقيدي من الاهتمام المستقبلي، ونـزعـة تخيل فيهـا من النمط التنبؤي التخيلي الطوبـاوي المثـالي من الاهتمام المستقبلي، ولكنـه يتميز كمـا سبق أن ذكـرنـا بصفتـه العلمية وبتمسكه بالمنطق الاختباري وبحاجته إلى عمل الفريق الذي يوفر مجمع فكر تتعدد فيه اختصاصات

العاملين ويكون ملتصقاً بالواقع، ويأتي هذا النمط في صورة احتمالات، وعنصر التخيل أصيل فيه.

هذه البداية من الحاضر هي البداية التي نختارها للشروع في الدراسة المستقبلية، ونصْب أعيننا تحليل الواقع القائم على مختلف صعده وبجميع أبعاده. فالدراسة المستقبلية تستند إلى أرضية هذا الواقع القائم الصلبة، وهي تنأى بنفسها عن مجرد التنبؤ رجماً بالغيب، وقد أوضح توفلر هذا الأمر قائلاً في كتابه خرائط المستقبل «المستقبليون الجادون بصورة عامة لا يدعون أبداً بأنهم يقومون بمهنة التنبؤ. وهم يخصصون وقتهم لتشريح الحاضر والإيحاء بتوجهات لمتخذي القرارات وتوضيح المخاطر ونتائج القرارات التي بدون ذلك تمر ولا يلحظها أحد. وهم مثل كل إنسان عاقل مدرك يعرفون ما الذي لا يعرفونه وما لا تمكن معرفته. ومن النادر أن يتنبأوا فنحن «حقيقة بعيدون جداً عن وسيط الوحي في دلفي» مشيراً من واقع ثقافته الغربية إلى معبد دلفي الشهير في التاريخ الإغريقي بعرافيه.

لعل من أهم ما ينبغي الحرص عليه عند البداية في الدراسة المستقبلية هو النظرة الشاملة للواقع القائم. فالشمولية هي أولى خصائص الاستشراف، وهي تقتضي منظوراً كونياً. وقد أوضح توفلر أنه كتب كتابيه «صدمة المستقبل» و«الموجة الثالثة» ضمن منظور كوني يتجاوز الوطنية والمحلية والاقليمية، «وكانت أبحاث التوثيق والأمثلة المنتقاة تسير كلها في هذا الاتجاه». وهذا المنظور الكوني قديم في حضارتنا العربية الإسلامية وقد اعتمده علم التاريخ والمؤرخون فيها سواء حين كتبوا التاريخ العام أو حين بدأوا به لينتهوا إلى تاريخ زمن محدد أو مكان محدد. وأذكر أنني حرصت على هذا المنظور في كتابي ماذا بعد؟ فبدأت حديث المستقبل برؤية للعالم المحيط.

آن لنا وقد استعرضنا بإيجاز مناهج اتبعت في الدراسة المستقبلية بأن نتعرف على منهج الفين توفلر كما شرحه بنفسه. فهو يقول عن منهجه «إعطاء قيمة كبيرة للتحليل المنهجي والكمي للتغيير الاجتماعي الاقتصادي، والاستعانة بالحد

الأقصى من الأدوات الكمية والنمـاذج المنهجية والناظمات الآلية مع اتخاذ موقف ريبي حيال نتائجها فهي تحمل لمحات بنائية وتوضح روابط واتجاهات، ولكنها لا تحمل الحقيقة بسبب انتفاخها بالأرقام. . ولا بد من الملاحظة المباشرة دون وسيط. فالمستقبلية فن وليست شكلاً هندسياً. . وليأت العلم لمساعدة الفن. ثم استخدام الفطنة والحدس في بناء نماذج (بعد خمس سنوات من القراءة النهمة) عمل فكري داخلي معقد جداً حتى يصل مرحلة الانشاء المكتوب. وهو يأخذ في الاعتبار ترابط الأحداث الاجتماعية مع بعضها، وأن التاريخ لا تحكمه قوة واحدة بل تلاقي قوى واتجاهات منها تشتق التغيرات الكبرى، وأن الحوادث تقع وتشهد عند وقوعها تموجاً داخلياً يتـزامن مع تمـوج خارجي، وأن كل ظاهرة وكل نظام يملك الأنظمة الفرعية الخـاصـة به، وأن كل ظاهرة تنتمي إلى بيئة خارجية هي موضوع لتموجات داخلية بدورها، وأن انفجار بنية جديدة بفعل تموج أو أكثر يقود إلى تشكيل بنية أكثر تعقيداً. وهـذا ما يسميه بريفوجين «البنية المبذرة». وإنّ لنا أن نقف في هذا الحديث أمام التحليل، والأدوات، والموقف الريبي، والملاحظة المباشرة دون وسيط، واستخدام الفطنة والحدس، ومجموعة الحقائق التي يجب أخذها في الاعتبار، لندرك كم تبدو الدراسة المستقبلية عملية تحليلية تركيبية.

لقـد أوضح توفلر في نموذج ما أسماه «الموجة الثالثة» أن في كل حضارة ستة أفلاك تقنية واجتماعية ومعلوماتيّة وبيولوجية وسلطوية ونفسية تمثل عناصرها البنيوية. وطـرح نظرية المـوجة بدل نظرية المراحل في رؤية التاريخ. . أي فهم مجتمعات بأكملها ضمن حركيتها، لأن الصراعات ذات الطابع العرقي والطابع الطبقي لا تكفي لتحليل مجتمع ما. كما أوضح أن لكل حضارة عقيدة عليا فوقية، وأن هناك مبادىء ينبغي أخذها في الاعتبار، فالصراع يحكم الكون وعنصر الصدفة موجود وللفرد دوره في التاريخ.

مقاربة المستقبل برؤية مؤمنة

إن الحديث في الدراسة المستقبلية عن مبادىء ينبغي أخذها في الاعتبار فيها

يدعونا إلى أن نطرح نحن المسلمين المؤمنين بمبادىء الإسلام تصورنا لهذه الدراسة المستقبلية، ومقاربتنا لها برؤية مؤمنة؛ وفي اعتبارنا أن البحث العلمي لا بد من أن ينطلق من رؤية تحكمه فهناك كما يقول محمود شاكر في كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» ما هو قبل المنهج سابق عليه، وإذا كان النمط العلمي الريادي كما أسماه قسطنطين زريق في الاهتمام المستقبلي فيه نزعة إيمان لا يمكن أن يقوم بدونها، فهذه النزعة توفر نظرة شاملة إلى الكون والحياة تنسحب على الماضي والحاضر والمستقبل. وتختلف هذه النظرة من دين لآخر وبين فلسفة وأخرى في رؤيتها لجوهر الكيان الكوني والإنساني وما يتصل به من مادة وفكر وروح، وفي تصورها لشكل التغير التاريخي وهل هو في خط مستمر أو في خط دائري، وفي موقفها من الجبر والاختيار. ومتوقع أن يكون لهذه النظرة أثرها النظري على مقاربة الدراسة المستقبلية وفعلها العملي في صنع المستقبل بعد استشرافه وتشوفه ورؤيته. والفارق بيّن بين الموقف الذي يقفه مثلاً هوج ستيوارت في كتابه تذكر المستقبل حين يستهل حديثه قائلاً «إن الإنسان هو لعبة القدر ومحركه في الوقت ذاته»، وكذلك خلفيّة ألفين توفلر حين يشير إلى وسيط الوحي في معبد دلفي، وبين موقف المسلم الذي يقول في صلاة الاستخارة داعياً «اللهم إني استخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم أن تبيّن لي عاقبة أمري»، وخلفيّته التي تؤمن بأن الله وحده هو عالم الغيب.

تتميز مقاربة الدراسة المستقبلية برؤية مؤمنة مسلمة ببعدها الروحي وأساسها الإسلامي العقيدي. فهذا الأساس يحث بدايةً على الاهتمام بدراسة المستقبل، والالتفات إلى الزمن، وأذكر أنني حين توجهت لهذه الدراسة وقفت طويلاً متأملاً في سورة العصر التي تبدأ بالقسم الإلهي به لفتاً لاهميته ثم تتحدث عن الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وقد لفت نظري أن التربية القرآنية لا بد أن تثمر اهتماماً بالدراسات التاريخية والدراسات المستقبلية. فالقرآن الكريم يقص علينا من قصص الأولين ويدعو أولي الألباب للوقوف أمام عبرتها. وقد جاء ختم سورة

يوسف بالآية الكريمة ﴿لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[1]. ونزول الوحي بسورة الروم في العهد المكي بمناسبة حرب نشبت بين الروم والفرس فيه تربية للجماعة المؤمنة على العناية بمجريات الأحداث في دائرتها الواسعة ضمن العالم المحيط بها وعلى استشراف المستقبل وتشوفه ﴿ألم. غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾[2]. وإن لنا أن نتأمل في القبلية والبعدية. وقد قال الله سبحانه في سورة فصلت ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أولم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[3]. وهو وعد برؤية مستقبلية. وتتردد في القرآن الكريم كلمات «الدهر» و«الغد» و«الحين» و«الوقت» و«قبل» و«بعد» وجميعها تدعو إلى الالتفات للزمن والاهتمام المستقبلي. كما تتردد كلمات «البصر» و«البصيرة» و«رأى» و«الرؤيا» و«الحلم» وهي تدعو إلى النظر في ما هو قادم مقبل، وكثيرة هي الأحاديث الشريفة التي توحي بأهمية النظرة المستقبلية والرؤية المستقبلية. ويكفي أن نستحضر كمثل عليها حديثه صلى الله عليه وسلم لأصحابه بعد أن تعرضوا لأذى الكفار وسألوه أن يدعو لهم ويستنصر الذي ضمنه عبرة تاريخ الأولين من المؤمنين وختمه بقوله «والله ليُتمن الله هذا الأمر حتى تسير الراعية من صنعاء إلى حضرموت لا تخشى إلا الله والذئب على غنمها، ولكنكم تستعجلون». وحديثه صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوم الخندق وهو يضرب بالفأس الصخرة أثناء الحفر فيرى من خلال الشرارة ملك فارس وملك الروم وربوع اليمن.

الأساس العقيدي

إن هذا الأساس العقيدي للرؤية المؤمنة يلفت النظر إلى السنن التي تحكم

---

(١) يوسف: ١١١.

(٢) الروم: ١ـ٥.

(٣) فصلت: ٥٣.

الكون والحياة والإنسان ومجرى الحركة التاريخية. وقد تحدث القرآن الكريم عن سنة الأولين، وسنة من قد أرسلنا، وسُنة الله، وسنن. الأمر الذي يؤدي إلى توفير وعي عميق بها وإدراك نافذ لها من خلال التفكير فيها. ويرفض هذا الأساس العقيدي في الوقت نفسه التنبؤ رجماً بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله «لست بنبيء الله ولكن نبي الله» وفرّق بين النبوة التي هي من الرفعة والارتفاع وسفارة بين الله وذوي العقول من عباده، والنبيء من التنبؤ والاستنباء. وإن المتأمل في قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع ملك مصر بعد أن أوّل رؤياه يجد فيها دراسة مستقبلية **﴿وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي، فلما كلّمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين. قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾**[1]. والحفظ مطلوب فيها وكذلك العلم. وقد استطاع يوسف أن يوظف الرؤية المستقبلية في معالجة أوضاع البلاد التي تعرضت للرخاء والقحط.

لقد استقر بفعل هذا الأساس العقيدي في تراثنا الحضاري العربي الإسلامي تقدير خاص لأصحاب البصر والبصيرة ذوي النظر النافذ، عبّر عنه المقَّري التلمساني في مطلع قصيدته التي افتتح بها كتابه «نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب» أروع تعبير، وأحسن فيه استخدام قصة زرقاء اليمامة رمزاً لأولئك الذين يتميزون بالرؤية المستقبلية. وزرقاء اليمامة هي امرأة من جديس عاشت في الجاهلية وذكر الجاحظ أنها كانت تُبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام وضرب بها المثل «أبصر من زرقاء اليمامة»، وقد أورد ابن عبد ربه قصتها في العقد الفريد. ويقول المقَّري «سبحان من قسّم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة: أعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاء اليمامة».

إن هذا الأساس العقيدي للدراسة المستقبلية برؤية مؤمنة إسلامية يجعل الدين في بؤرة الشعور وهو يقضي بأن تكون الوحدات الأساسية في التاريخ البشري هي

---

(١) يوسف: ٥٤-٥٥.

الأديان. وقد توصل ارنولد توينبي إلى هذه الحقيقة وإلى أن الحضارات ليست سوى وسائل لظهور هذه الأديان بعد أن أصدر المجلدات الأولى من كتابه «دراسة في التاريخ» معتبراً فيها أنَّ الحضارة هي الوحدة الأساسية في التاريخ. وجاء ذلك التحول بعد الحرب العالمية الثانية، ودعاه ـ كما يقول زريق ـ إلى أن «يذهب من هذه الحقيقة إلى أن الحوار الأساسي الذي يجب أن يقوم في هذه المرحلة المصيرية من وجود الإنسانية ليس الحوار بين الدول، أو حتى بين الحضارات، بل بين الأديان الكبرى في عالم اليوم، وسيتوقف على هذا الحوار مصير الإنسانية وحدةً وبقاءً وازدهاراً أو انقساماً وزوالاً وتبدداً».

يحدد هذا الأساس العقيدي أيضاً مفاهيمنا للمُصطلحات التي تدل على موضوعات تتناولها الدراسة المستقبلية. فمصطلح السياسة مثلاً له مفهومه المحدد المختلف عن مفهومه في الحضارة الغربية اليوم. فالسياسة كما يقول التهانوي في كشاف مصطلح العلوم «هي استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في الدنيا والآخرة. ووُسِمَت بأنها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأموال وهي نوعان سياسة عادلة.. وأخرى ظالمة الشريعة تحرمها». وعلم السياسة يكتسب مفهوماً متشرباً هذا الأساس العقيدي. وقد بلور ابن خلدون مصطلح العمران وهو «مفهوم جذري يرتكز على فكرة الخلق الدينية» كما يقول عبد السلام شدادي «ويدل على وجود الإنسان والنظام البشري بصفة عامة. فالناس أساساً متساوون وأحرار ولهم على الأرض سيادة بوصفهم مخلوقات الله، ولا يختلفون فيما بينهم إلا نتيجة لأحوال حياتهم التي تتوقف على ظروفهم الجغرافية والمناخية». وقد ميَّز ابن خلدون في نطاق العمران بين العمران البدوي والعمران الحضري. كما بلور مصطلح المُلك. وهكذا يعطي كل مصطلح مفهوماً متمثلاً هذا الأساس العقيدي.

لعل من أهم ما يوفره الأساس العقيدي للدراسة المستقبلية برؤية مؤمنة إسلامية هو التوجيه الإيجابي فيها النابع من حسن الظن بالله سبحانه وتعالى والمعتمد على العمل الصالح. وقد سبق أن أشرنا إلى سورة الشرح والعسر الذي لا يغلب يسرين

«والنصبَ والرغب». ويرفض هذا التوجه الإيجابي في التعامل مع المستقبل التشاؤم اليائس و ﴿**إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾[1]، تماماً كما يرفض التفاؤل المتواكل والفرق شاسع بين التوكل بعد العمل والتواكل الذي يعطل عن العمل وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم «اعقلها وتوكل». وما أروع الآيات القرآنية التي تغذي هذا التوجه الإيجابي ونراها في سورة آل عمران بمناسبة معركة أُحد وفي سورة الأحزاب وفي يوم حنين، كما نراها في سورة الصافات وغيرها من السور المكية وهي تتحدث عن النجاة من الكرب العظيم. والحق إن الحاجة إلى هذا التوجه الإيجابي تبلغ أشدها إبان الأزمات وهذا ما يدعو إلى الرؤية المستقبلية التي تحمل في طياتها الأمل وفقاً للقول المأثور «اشتدي أزمة تنفرجي». وقد شرح الأب اسطفان شربنتييه في كتابه دليل إلى قراءة الكتاب المقدّس أهمية الرؤية وهو يتحدث عن كتب الرؤى قائلاً «نواجه طوال حياتنا أحداثاً سارة وأخرى مؤلمة، ونحاول أن نتغلب على ما هو مؤلم ونغيره ليصير ساراً، وأن نعطي هذه الأحداث معنى وإذا شعرنا بأننا ضللنا السبيل فإننا نغير أنفسنا. هذا ما كان الأنبياء يفعلونه وهم يدعون الناس إلى التغير والاهتداء. وقد يحدث أحياناً أن يستعصي الشر ويبدو أن لم يعد هناك مخرج والطريق مسدود، فلا يبقى إلا ترقب أيام أفضل. وإن كان هناك أحد في إمكانه أن يبشرنا بذلك وجدنا في الأمر نوراً ورجاءً يساعداننا على الصمود».

إن الأساس العقيدي الإسلامي يوجه الدارس المستقبلي إلى وسائله في دراسته من خلال ما جاء في القرآن الكريم عن «الرؤية» فإدراك المرئي، كما قال الراغب الأصبهاني في تفسير غريب القرآن يتم أولاً بالحاسة وما يجري مجراها ﴿**لترون الجحيم**﴾، وثانياً بالوهم والتخيل ﴿**لو ترى إذ يتوفى الذين كفروا**﴾، وثالثاً بالتفكير ﴿**إني أرى ما لا ترون**﴾، ورابعاً بالعقل ﴿**ما كذب الفؤاد** ما رأى﴾. وفعل رأى إذا عدي إلى مفعولين اقتضى معنى العلم ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم**﴾ ﴿**إن ترنِ أنا أقل**

---

(١) يوسف: ٨٧.

منـك مالاً وولـداً﴾. فنحن هنـا أمـام إدراك بحاسة وتخيل وتفكر وعقل، وجميعها تدخل في الدراسة المستقبلية.

بقي أن نقول بشأن الأساس العقيدي لمقاربة الدراسة المستقبلية برؤية مؤمنة مسلمة إنه لما كان القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين، فإن هذا الأساس يوجه الـدارس المستقبلي أيضاً إلى الوقوف أمام دلالات اللفظ العربي واستجلاء معانيه الدقيقة والوقوف أمام الفرق القائم بين ما يبدو وكأنه مترادفات. وهذا كله يوصل إلى الـدقـة العلمية المـطلوبـة في الـدراسة المستقبلية. فمتى نستخدم «السنة» ومتى نستخـدم «العام» وكذلك الأمر بالنسبة للزمن والوقت والدوام والبقاء. وكيف نحيط بدلالة اللفظ إذا انتبهنا لما اسماه البعض جدلية الحرف العربي وقد ألّف فيها محمد عنبر كتاباً يحمل هذا الاسم نبّه فيه إلى أن «كل لفظ مكان في ذاته وزمان لما هو كائن فيه. فهو على هذا مكان من وجه وزمان من وجه آخر. ولكن الزمان هو الوجه الكامن دوماً وحين يظهر يصبح مكاناً». ومعنى الزمن مثلاً يبدو أكثر وضوحاً إذا تعرفنا على معـنـى المــزن. والحق أن هذا التمكن من اللســان العــربي ضروري لاتقــان المستقبلية، ويحث عليه الأساس العقيدي.

إن الأســاس العقيدي في الدراسة المستقبلية يوفر للدارس ما هو قبل المنهج سابق عليه. ويكون الانطلاق من هذا الأساس للسير وفق منهج مناسب يختاره خطوة خطوة. والمنهـج الـذي نختـاره يتضمن مرحلتين، يتـركـز النـظر في أولاهما على الحاضر والماضي وفي الأخرى على المستقبل.

البداية في المرحلة الأولى من الحاضر، كما سبق أن ذكرنا، ويكون نصب عين الـدارس فيهـا الإحـاطة بهذا الواقع من جميع جوانبه بنظرة شاملة وتحليله لتحديد العـوامل الفاعلة فيه والعناصر المكونة له، والنظر فيما هو ثابت منها وما هو متغيِّر. وطبيعي أن تكون الدراسات التي تتناول هذا الواقع مستقصية ما أمكن. وقد يتولى الفريق الدارس إعداد بعضها، وله أن يستعين بالحد الأقصى من الأدوات والنماذج

والناظمات كما سبق أن نقلنا عن توفلر. وتجدر الإشارة هنا إلى ضرورة العناية ضمن هذه الخطوة بدراسة بعد المكان الذي يمثل عاملاً جغرافياً ثابتاً له تأثيره. ويمكن للفريق الدارس أن يصنف جوانب هذا الواقع في محاور. ويتداعى إلى خاطري هنا ما قام به عبد العزيز كامل من دراسة لبعدي الزمان والمكان في القرآن، وبحوث الجغرافيا السياسية التي تفرَّغ لها جمال حمدان. كما أذكر تجربتي في عملية التحليل هذه أثناء دراستي لدور مصر العربي في الثمانينات. كما ينبغي على الفريق الدارس أن ينتهي من تصنيفه إلى ترتيب العوامل الفاعلة في تكوين هذا الواقع والعناصر وفقاً لقوة فعلها.

الخطوة التالية في هذه المرحلة الأولى من الدراسة المستقبلية هي تتبع جذور هذا الواقع الحاضر في الماضي لمعرفة أصوله، والنظر في التفاعلات التي جرت بين عوامله الثابت منها والمتغير، وصولاً إلى التعرف بعمق على كل منها وتحديد مجرى الحركة التاريخية للأحداث التي شكلته، والوقوف أمام السنن التي تحكم هذه الحركة. وقد يطمح الدارس المستقبلي هنا إلى التعبير عن هذا كله بلغة رياضية، ويستعين بالرموز والرسومات التوضيحية، وأشير كمثل على ذلك إلى محاولتي في كتابي «ماذا بعد حرب رمضان» تحديد مجرى الصراع ومكان الحرب منه في ختام حديث الحاضر والماضي.

المنطلق التاريخي في دراسة المستقبل

نحن هنا في هذه الخطوة مع المنطلقات التاريخية لدراسة المستقبل. ودارس المستقبل يسأل نفسه «ما هو جدوى فهم الماضي؟» وهو يجيب «من أجل صحة إدراك الحاضر وحُسن الإعداد للمستقبل» على حد تعبير زريق وتتطلب هذه الخطوة في الدراسة المستقبلية إعداداً للدارس المستقبلي يمكنه من حُسن التعامل مع التاريخ ويزوده بنظرة في فلسفة التاريخ. ولتاريخ الأفكار في هذه الخطوة أهمية خاصة الذي مهمته «إدراك دور المذاهب والأفكار التي تدفع الناس في اتجاه معين» كما تحدث عنه كرين برنتون وفرنكلين باومر. ويتركز هذا التاريخ على أفكار الكافة

أو على العالم الباطني للفكر، فهو ليس مقصوراً على أفكار القلة. وهو يهتم بالأفكار التي تحظى بانتشار واسع على صعيد حياة الناس من خلال الجماعات والحركات البشرية الكبيرة. ورغم أنه يدور بالضرورة داخل الفكر العقلاني إلا أنه يتناول أفكاراً ترتفع إلى درجة الإيمان والمعتقد. وهو يعرفنا بالقيم التي جاءت من الماضي وبالتعليل التاريخي لكيفية تأثر الناس بهذه القيم، ويسجل دوراً كبيراً للمثقفين أهل القلم الذين يقومون بنشر هذه الأفكار ويوليهم عناية خاصة. وقد عني أجدادنا بتاريخ الأفكار حين أرخوا للأوائل والمجددين متمثلين ما جاء في القرآن الكريم من قصص الأولين.

إن الغفلة عن أهمية المنطلقات التاريخية في الدراسة المستقبلية تهدد بالوقوع في خطر السطحية والعجز عن سبر الأغوار والنفاذ إلى العمق. ويقع في هذه الغفلة كثيرون من الذين جذبهم بريق الحديث عن المستقبل. وهؤلاء نراهم يقفزون إلى النظر المستقبلي ويعجبون من العناية بالمنطلقات التاريخية ظانين أن ذلك حديث مضى ومتضايقين أحياناً من إعطائها نصيباً وافياً من مجمل الدراسة المستقبلية. والحق أن الوفاء بحق هذا الجزء أمر بالغ الضرورة وشرط للتوصل إلى الاستعداد المطلوب للولوج في عملية النظر المستقبلي. ويكفي لاستشعار حقيقة ذلك أن نذكر بأن هذه الخطوة وبخاصة ما يتعلق فيها بتاريخ الأفكار هي التي تمكّن الدارس المستقبلي من التعرف على الأهداف التي بلورها المجتمع الذي يدرسه والتعرف على هذه الأهداف ضروري في النظر المستقبلي عند أخذ عنصر الحلم والأمل في الاعتبار ورؤية تفاعله مع العوامل التي نراها في الواقع. وما زلت أذكر كيف اطلق دارس مستقبلي حكماً على مجتمع بأنه لا يعرف ماذا يريد، لأن هذا الدارس لم يلتفت إلى المنطلقات التاريخية. كما أذكر كيف أوحت دراسة إمارة الجهاد إبان حروب الفرنجة بطريقة التعامل المثلى لاستشراف مستقبل الصراع العربي الصهيوني في إحدى الدراسات المستقبلية.

سيجد الدارس المستقبلي في مدرسة التاريخ التي ظهرت في حضارتنا العربية

الإسلامية ما يساعده كثيراً على التمكن من حُسن التعامل مع المنطلقات التاريخية في الدراسة المستقبلية. فمعاني التاريخ فيها تجمع بين عملية التدوين التاريخي وعلم التاريخ وتاريخ الأعلام وسير الزمن والأحداث أي التطور التاريخي. وهي من ثم لا تعرف الفجوة التي نراها في الغرب بين فلاسفة التاريخ والمؤرخين الممارسين، وقد تحدث عنها دونالد استروفسكي من هارفارد في مجلة ديوجين (العدد ٨٧/ ١٤) قائلاً «كلا الفريقين يشجع في زهو وافتخار الانعزال عن الآخر. فالفلاسفة يرون أن المؤرخين غير مؤهلين للتفلسف في دراسة التاريخ. والممارسون يرون أن فلسفة التاريخ ضرب من الهراء». وتحرص مدرسة التاريخ العربية الإسلامية على فهم التاريخ بالمعنى الشامل، فأفقها عالمي، والإسلام أمة واحدة، كما أوضح شاكر مصطفى في كتابه «التاريخ العربي والمؤرخون»، وهي من ثم تتميز بالشمول وتضع نصب عينها رسالة عالمية. وقد حفلت هذه المدرسة بالمجتهدين الذين يغني الدارس المستقبلي التعرف على محاولاتهم ومنها محاولة ايجاد علاقة بين التاريخ والنجوم والفلك التي قام بها مشتغلون في ميدان التنجيم امتدوا إلى ميدان التاريخ، وتحدث عنها إخوان الصفا في رسائلهم. ومن المتوقع أن يتمثل الاغناء في هذه الحالة في التحصن ازاء محاولة نراها في الغرب اليوم تتحدث عن «باراسيكولوجي» كعلم يزعم الطموح إلى اكتشاف طاقات الإنسان المجهولة وخوارق الظواهر مثل تأثير الفكر على المادة والخروج من دائرة الزمان والمكان، وتضرب مثلاً بنوستراداموس، والحديث عن محاولات أخرى عدة نجده في ما كتبه ابن خلدون في مقدمته وسبق أن أشرنا إليه. ويكفي لتصور مدى غنى مدرسة التاريخ في حضارتنا أن نستذكر قول شاكر مصطفى «إن التاريخ في اعتقادي علم عربي إسلامي أو يمكن اعتباره كذلك. . » فقد تميزت الحضارة العربية الإسلامية بالنزعة التاريخية الواضحة التي تجلت في ظهور خمسة آلاف مؤرخ على الأقل وما يزيد على عشرة إلى اثني عشر ألف كتاب تاريخ في أقل تقدير لديها وبعض هذه الكتب في خمسين وثمانين ومائة مجلد. وقد تحول التاريخ إلى علم منهجي على يد ابن خلدون».

يتهيؤ دارس المستقبل بعد أن يقطع المرحلة الأولى إلى دخول المرحلة

الأخرى، والانتقال من حديث الحاضر والماضي إلى حديث المستقبل. ويكون قد «عرف الأمور على وجهها». وهذه فائدة «فن التاريخ» عند السخاوي الذي قال في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التاريخ» «وبعد فلما كان الاشتغال بفن التاريخ من أجل القربات، بل من العلوم الواجبات المتنوعة للأحكام الخمسة بين أولى الإصابات... وأما فائدته فمعرفة الأمور على وجهها». ويصبح هذا الدارس مستعداً لمباشرة عملية الاستشراف والتشوف والرؤية وفي اعتباره المعنى الذي ابرزه المقريزي في خطبة كتابه «العقود الفريدة» حين قال «إن الله أقام الخلائق جيلاً بعد جيل، واستعمرهم قبيلاً إثر قبيل، ليبقي الأوَّل للثاني قصصه مواعظ وعبراً، ويحيي الآخر للمتقدم ذكراً وينثر خبراً، كي يرعوي الفطن عن فعل ما يذم ويستقبح، ويقتدي الأديب بما هو الأحسن من الأخلاق والأصلح».

الاستشراف هو الخطوة الأولى في هذه المرحلة الأخرى. وقد عدت في كتابي «وحدة التنوع» إلى المعاجم لتحديد دلالتها في لساننا العربي، وانتهيت إلى أن الاستشراف «يتضمن التطلع والنظر وحديث النفس والتوقع» وهو أول ما نبدأ به. والتشوف هو «الاستجلاء من خلال التطلع والنظر الشامل» وفيه معنى الارتفاع بغية الإحاطة بالنظر، وقد رأينا كيف تحدّث ابن خلدون عن تشوف الأمور المستقبلية في مقدمته في معرض حديثه عن الرؤيا. فالتشوف إذن قرين الاستشراف، وهو خطوة تالية له في الدراسة المستقبلية يصل الدارس من خلاله إلى الاستجلاء بعد أن يكون قد تطلع وأمعن النظر. والرؤية هي ذروة عملية الدراسة المستقبلية وهي «النظر بالعين والقلب» و«النظر بالعين والعقل» وإدراك المرئي بطرق عدة هي كما سبق أن ذكرنا الحاسة والتخيل والتفكر والعلم.

عنصرا الحلم وإرادة الفعل

سيكون على الدارس في هذه المرحلة من دراسته أن يبدأ أولاً بإدخال عنصر الحلم والأمل فيما أدركه من خلال النظر في الحاضر والماضي، وهو يستشرف ويتشوف متطلعاً ناظراً محدثاً نفسه متوقعاً مستجلياً. وعنصر الحلم والأمل هذا

يتضمن الأهـداف التي بلورهـا المجتمع وتم التعرف عليها من خلال المنطلقات التاريخية في الدراسة المستقبلية. وقد اجتهدت في اختيار لفظة الحلم للدلالة على هذا العنصـر لأن اللفظ في اللسان العربي يجمع في دلالته بين الرؤيا في المنام وضبط النفس والطبع عن الهيجان والغضب ومسببات العقل كما في قوله تعالى **﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا﴾** أي عقولهم «وليس هو العقل ولكن من مسببات العقل» كما جاء في لسان العرب. واستخدمت هذه اللفظة منذ كتابتي «ماذا بعد حرب رمضان». واستشعرت مؤخراً جدوى قرنها بلفظة الأمل للدلالة على التطلع لتحقيق الحلم. وهكذا ينظر الدارس كيف تتفاعل العوالم التي حددها تحليل الواقع القائم وجرى التعـرف على جذورهـا التـاريخية ورسم خطوطهـا البيانية ضمن مجـرى الحـركة التـاريخية، مع عنصر الحلم والأمل وما يتضمنه من أهداف، موظفاً طرق الرؤية الأربع: الحاسة والتخيل والتفكر والعلم.

العنصر الآخر الذي سيكون على الدارس ادخاله في هذه المرحلة هو عنصر «الفعـل» منـطِقـاً وإرادة وقـدرة. والحق أن مما يتداعى إلى الخاطر عند ذكر كلمة المستقبل «عزم الإنسان على الفعل لتحقيق مايريد، تحثه أحلامه وآماله التي كوّنها، وهـو يعيش أيامـه، من خلال تجاربه مستمداً العون من خالقه عالم الغيب الحليم الخبير الفعّـال لمـا يريد». ولا بد للدارس من أن يقـوم بقياسِ عنصـر الفعـل هذا مستفيداً من نظره في الحاضر والماضي. هذا النظر الذي يمكّنه من تحديد الطور الذي يمر به الاجتماع الإنساني موضع الدراسة، أهو طور انبعاث أم طور انحطاط أم طور سكون. ويمكّنه أيضاً من رؤية حال الفكر والصلة وثيقة بين الفكر والفعل وقد تحـدثت عنها في مقدمة كتابي الذي يحمل عنوان «فكر وفعل». وأذكر أنني عنيت بدراسة هذين العنصرين «الحلم والأمل» و«الفعل» حين استشرفت مستقبل القضية الفلسـطينية والصـراع العـربي الصهيوني في محـاضرة ألقيتُها في المجمع الثقافي بالإمارات العربية مطلع عام ١٩٨٦ فبدا لي أن أهلنا داخل وطننا المحتل على وشك الانتفاض، وقد طرحت رؤية مستقبلية لانتفاضتهم. كما أذكر أنني دعيت بعد عامين

أثر قيام الانتفاضة للحديث عنها هناك ومراجعة تلك الرؤية المستقبلية وما تحقق منها وما لم يتحقق.

الرؤية والتوقع المشروط

في أي شكل يطرح الدارس المستقبلي الرؤية التي يتوصل إليها؟

إن له أن يطرح هذه الرؤية في مجموعة توقعات مشروطة ضمن مشاهد تفترض الواقع تارة والمأمول تارة أخرى. وهذا ما فعلته دراسة استشراف المستقبل العربي وكان القصد منه «اطلاع القوى الفاعلة في المجتمع على متطلبات تحقيق إحدى الصور المأمول فيها». ولقد اخترت في كل ما قمت به من دراسات مستقبلية أن انتهي إلى طرح توقع مشروط هو في الوقت نفسه الذي أتبنى الدعوة إليه. ذلك أن حديث المستقبل كما سبق أن ذكرنا «يوظف المعرفة للفعل والتأثير، ويحاول تحديد ما ينبغي مع الأخذ في الاعتبار توقع ما سيكون. والغاية أن تتوافق من خلال الفكر والفعل صورة الأحلام والآمال مع صورة التوقعات. فهذا الحديث يتصف ـ في أحد وجوهه ـ ويوحي بما ينبغي أن نفعله ونكدح من أجله. ومن هنا تأتي دقته. وكم يخطىء اولئك الذين لا يدخلون فيه أحلام الناس وآمالهم وأهدافهم التي يسعون إلى تحقيقها، ويسقطون من حسابهم إرادة الفعل عند الإنسان والمجتمع الإنساني، فيسقطون في مهاوي التشاؤم اليائس». كما قلت في كتابي «وحدة التنوع». وهكذا جاء شكل الطرح «نتوقع إذا عملنا هذا أن يحدث هذا وهذا، . . وإذا لم نعمله أن يحدث كذا. . ، وإذا عملنا ذاك أن يحدث. . » والحق إن حديث المستقبل كأي حديث يجب أن يكون حديث خير يوظف لما فيه خير الإنسان، حثاً أو تحذيراً، فمن «كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»، «ولا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس».

إن الدراسة المستقبلية ستنتهي إلى رؤية تعبِّر عن «البصيرة» وهي «قوة القلب المدركة» في لساننا العربي. وهي كما سبق أن ذكرنا تحتاج إلى عمل الفريق لإنجاز جميع متطلباتها في مرحلتيها. ولكنها في آخر الأمر تحتاج إلى أفراد من ذوي البصيرة

يتميزون بالقدرة على النظر الشامل والتحليل والتركيب والتوقع والاستجلاء، ليقوم الواحد منهم بصياغة الرؤية المستقبلية من خلال بلورة كل ما توصّلت إليه دراسات الفريق. وقد رمَز المقّري لهؤلاء «بزرقاء اليمامة» كما رأينا، وأسماهم الشاعر كونستانتين كفافي «اليوناني السكندري» «حكماء الأمور الدانية» حين قال «البشر يعرفون الحاضر/ المستقبل يعلمه الله ذو الكمال المالك الوحيد لجميع الأنوار/ من أمور المستقبل يدرك الحكماء تلك التي تدنو/ يهيج سمعهم أحياناً أثناء التأملات المليّة/ يأتيهم الصخب السرّي للأحداث التي تدنو/ وينصتون إليه في ورع/ بينما في الخارج، في الشارع/ لا يسمع الناس شيئاً» وصنّف ابن خلدون في مقدمته النفوس البشرية بحسب تعاملها مع ما أسماه «الإدراك الروحاني» إلى ثلاثة أصناف الأول عاجز، والثاني متوجه بالحركة الفكرية نحو العقل الروحاني، والثالث مفطور عليه.

نستطيع من خلال ما سبق أن نستخلص الضوابط التي يحددها لنا الأساس العقيدي الإسلامي في الدراسة المستقبلية. فنحن نؤمن بالغيب، وأن الله سبحانه هو «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً. إلّا من ارتضى من رسولٍ..»، وأنه خلق الإنسان صاحب روية وفكر مدركاً ما حوله ومدركاً الزمن. ومتوقع من ثم أن لا نتحدث عن علم الغيب وإنما عن رؤية المستقبل، وأن لا نعمد إلى التنبؤ وإنما نعمد إلى النظر والرؤية وننتهي إلى التوقع والعزم على العمل الصالح. وهذا يدعونا إلى أن نستخدم مصطلحات تتفق مع إيماننا وتتميز بالتحديد الدقيق للمفهوم. وإن لنا أن ندعو بدعاء الاستخارة «اللهم إني استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك..» وأن نتوجه من عملية الدراسة المستقبلية إلى صنع المستقبل وكلنا ثقة بقدرتنا بعون الله على تحقيق أهدافنا. وقد قال أجدادنا: «إن لله عباداً إذا أرادوا أراد». وصدق الله العظيم القائل ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾، الذي وعد الذين آمنوا ﴿ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم. وليبدِّلَنَّهم من بعد خوفهم أمنا. يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾.